

الأدب وقضية فلسطين

بقلم الدكتور مهدي عزم

بلاده ، واهلها العرب من مسلمين ونصارى :
يسارب ان (بلفور) انقذ وعده
كم مسلما يبقى وكم نصراني !
وكيان مسجد قريني ، من ذا الذي
يبقي عليه اذا ازيل كياني ؟
وكنيسة المذراء ، اين مكانها
سيكون ؟ ان بعث اليهود مكانسي ؟
او كما يقول ابراهيم الدباغ (ديوان الطليعة) في نغمة ساخطة
غاضبة :

ما وعد (بلفور) من امر السماء ، ولا
في الجذب من ارضنا رزء لمخنطب ،
هل وعد (بفور) تشريع ، اذا فرطت
اغلوطة منه تدعو الناس للعجب ؟
ما حكمة بعد احكام السماء ، ولا
يرضى به بعد حكم الله غير غبي .
يحوطه باسمه القانون ، معتصما
بنصه ، بمعنا كاليفصل الذرب .
او كما يقول جورج صيدح في سمو وانفة :
مهلا خلافت (بلفور) الكريم لقد
جاوزتمو شأوه في حلبة الكرم
حامي حمانا ، حمانا الله منك ومن
وصاية فرضتها عصبة الامم
اكل شانك ارغام الشعوب ، وان
تقوم فيها مقام الخصم والحكم ؟
مهد النبوة تآبى ان تدنسه ،
ان نام فيه بنو صهيون لم تم .
او كما يقول ابراهيم طوقان في تهكم وسخرية :
قد شهدنا لفهدكم بالعدالة
وختمنا لجندكم بالبساله .
وعرفنا بكم صديقا وفيا ،
كيف ننسى انتداباه واحتلاله !
وخجلنا من لطفكم يوم قلتم
وعد (بلفور) نافذ لا محاله .
كل افضالكم على الرأس والعين ،
وليست في حاجة لدلاله ،
ولئن ساء حالنا فكفانا
انكم عندنا باحسن حاله ،
غير ان الطريق طالت علينا
وعليكم ، فما لنا والاطاله ؟
اجلاء عن البلاد تريدون فنجلو ؟ ام محفنا والازاله !

وهكذا نستطيع ان نسوق الامثلة الكثيرة للموضوع الواحد في
قضية فلسطين ، يتناوله الادب الخاص ، كما يتناوله الادب العام ،
القانوني او السياسي . نجد ذلك في وصف المؤتمرات التي عقدت قبل
النكبة ، وفي وصف مشروعات التقسيم قبل النكبة وبمدها ، ونجد
ذلك في وصف الثورة العربية في مراحلها المختلفة ، كما نجده في وصف

للادب معنيان او اطلاقان ، الادب بمعناه الاخص ، وهو الذي
اصطلح الكتاب من قديم على انه التعبير الجميل عن المعنى الاصيل، او
الصورة الرائعة للفكرة الطازجة ، او الابداع في التعبير والتصوير
لخواطر النفس . وهو في نطاق هذا المعنى لا بد ان يمس العاطفة
الانسانية ، وان يهز مشاعرنا ، فيجتذب قارئه او سامعه عن طريق
الوجدان ، اكثر مما يقنعه عن طريق الحجة والبرهان . ويتمثل الادب
بهذا المعنى في الشعر ، والقصة بانواعها ، والمقالة الادبية .
وهناك الادب بمعناه الاعم ، وهو يشمل الادب بمعناه الاخص ،
مضافا اليه الوان اخرى من الكتابة ، تختلف عنه في عدم اعتمادها على
العاطفة ، مستفيضة عنها اسلوبا اخر في اجتذاب القارئ او السامع،
هو منطق الحجة والبرهان . ويدخل في نطاق هذا المفهوم للادب عديد
من الكتابات في فروع المعرفة الانسانية المتصلة بالتاريخ والاجتماع
والفلسفة والسياسة ، بل المتصلة بالادب نفسه . فالحجج الادبية
وتاريخ الادب ، والنقد الادبي ، لا استطع ان اسميها ادبا بالمعنى
الاخص ، لانها لا تقوم على جمال التعبير ، والابداع في التصوير ،
والتحليق في الخيال ، واجتذاب القارئ بسحر الكلمة وروعة الاسلوب،
وانما تعتمد على المنطق الذي يخضع الكاتب لمقاييس تختلف عن مقاييس
الادب ، وترتفع فوق افئاع الوجدان .

ونحن مع ذلك لا ندخل في نطاق الادب بمعناه الاعم كل ما يكتب في
التاريخ او السياسة او الفلسفة او الاجتماع ، فقد يصل ما يكتب في
هذه الفروع الى درجة من الدقة في التفكير ، والقصد في التعبير ،
والخضوع لمقتضيات العلم ، الى درجة تقربه من العلوم الرياضية ،
وتخليه من جمال التعبير الادبي ، فيصبح بذلك علما لا ادبا .
ومن اليسير تحديد خطوط فاصلة بين الادب بمعناه الاخص ،
والادب بمعناه الاعم ، في كثير من الموضوعات ، ولكن بعض الموضوعات
تتماس فيها الخطوط المحددة ، وحيانا تتداخل ، وربما اتحدت .
فموضوعات القومية العربية ، والوحدة العربية، والاستعمار، والاشتراكية،
والقنبلة الذرية ، وتحديد النسل ، يلتقي في كثير مما يكتب عنها
الادب بمعناه الاخص والادب بمعناه الاعم، وقد ينفرد الادب الاخص
بفنونه التعبيرية عنها شعرا ومقالة وقصة ومسرحية ، وقد ينفرد الادب
الاعم بما يكتب فيها على اساس من العلم والتاريخ والاحصاء والحجج
المنطقية .

والموضوع الذي اتحدث عنه في مؤتمر الموقر ، وهو « قضية
فلسطين » في مقدمة الموضوعات التي تناولها الادب بمفهومه الخاص
والعام . فعند الكلام عن « وعد بلفور » مثلا نلتقي بالادب القانوني
الذي يطل هذا الوعد ، ويفنده على اساس قانوني تشعر فيه بالحجج
والادلة من غير عرض تصويري بلافي يدخله في نطاق الادب بالمفهوم
الخاص . ومع ذلك نجد عرضا لهذا الوعد المشؤم يتناوله من الناحية
السياسية ، متتبعا جذوره الاولى في الحركة الصهيونية ، وموضحا
ما يترتب عليه من انتقاص وحرمان لاهل البلاد التي صدر بشأنها هذا
الوعد المشؤم ، انتقاص والى جانب ما كتب عن « وعد بلفور » من
الناحية القانونية والناحية السياسية نجد عشرات من النصوص التي
تناولته من الناحية الادبية ، معتمدة على جمال التصوير وقوة التأثير،
كما يقول مثلا مصطفى وهبي التل في نغمة حزن واسى على مصير

حرب فلسطين ووقوع النكبة . ونجده في الحديث عن اللاجئيين وقضيتهم ، وعن هجرة اليهود وتسلمهم . ولن يتسع الزمن لاكثر من امثلة عابرة لما نقول .

فمن الادب القانوني ، الخاص بخلف الوعد من الانجليز ، الوثيقة الرابعة عشرة ، من « الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين » التي نشرتها جامعة الدول العربية . وفي هذه الوثيقة رد على بيان رئيس القضاة البريطاني في مؤتمر فلسطين الذي عقد في لندن سنة ١٩٢٩ وقد جاء فيها :

« ... ان مندوبي العرب ... يدهشهم ويؤسفهم ان يروا رئيس القضاة يأخذ بوجهة النظر القائلة ان فلسطين كانت مخرجة من المنطقة التي تعهدت بريطانيا العظمى في مكاتبات مكماهون ان تعترف باستقلال الحكومات العربية وتؤيده . وهم يعتقدون - بعد درس البيان والمذكرة المشار اليهما بعناية - ان رئيس القضاة لعله فاته المدلول الحقيقي لمكاتبات تبودلت كلها باللغة العربية ، وقد تداول احد مندوبي العرب - رغبة في اصلاح هذه الاغلاط وازالة اثارها - مع الخبير الذي نديتبه حكومة الملك ، وقدم اليه بيانا بالاغلاط التي وقعت في الترجمة ، وبما بين النص العربي والنص الرسمي الانجليزي من التفاوت ... »

« قال رئيس القضاة في الفقرة السابعة من مذكرته . انه نظرا للصفة المقدسة لفلسطين فان من الواضح ان بريطانيا العظمى لم يكن لها حق ولا سلطة في سنة ١٦١٥ يخولها ان تعد ، في حالة نجاح الحلفاء ، في ان ينتزعوا من الدولة العثمانية ارضا لها مثل هذه الاهمية للعالم المسيحي . وان يسلموها الى دولة اسلامية اخرى مستقلة ، من غير ان يحصلوا اولا على كل نوع من الضمانات لحماية الاماكن المقدسة ، من مسيحية ويهودية ، وكفالة حرية الوصول اليها على الاقل بقدر ما كان ذلك مكفولا في عهد الاتراك انفسهم . ويستنتج سيادته من ذلك ان مما لا يتصور ان يكون السير هنري مكماهون قد قصد ان يعطي الشريف وعدا لا قيد فيه ولا شرط بان تكون فلسطين داخلة في منطقة الاستقلال العربي ... »

ويقرر مندوبو العرب بكل احترام ان هذا الاستنتاج قائم على خطأ مادي في تصور الموقف ، وذلك اولا لان سلامة الاماكن المقدسة ، وحرية الوصول اليها ، منصوص عليهما بصراحة في معاهدة برلين المعقودة سنة ١٨٧٨ وهي معاهدة دولية معترف بها في اوسع نطاق ، ومقيدة بهما تركيا ، وهي تسري من تلقاء نفسها على كل دولة ينتقل اليها ما كان للدولة العثمانية من سيادة في فلسطين . وثانيا لان نص المكاتبات نفسها يبين بجلاء ان المقرر ان تنتفع حكومات الدول العربية المستقلة بالمشورة البريطانية ، وبمساعدة الموظفين البريطانيين في اقامة نظام حكم صالح . وهذا وحده كان ضمانا كافيا ، ينتفي به كل خطر ، تقوم دولها . وثالثا لان السير هنري مكماهون وضع تحفظا صالحا فيما يتعلق بالاماكن المقدسة ، وذلك في كتابه المؤرخ في ٢٤ اكتوبر ١٩١٥ وفيه يقول : (ان بريطانيا العظمى تضمن الاماكن المقدسة من كل اعتداء خارجي ، وتعترف بوجوب منع التعدي عليها .)

وحين يعالج الشاعر عبد الرحيم محمود هذا الموقف يقول :

واني الحليف وقسام في اعتابنا
متحيرا ، انما هدى التحير ،
واستنصر الصرب الكرام ، وانهم
غوث الطريد ونصرة المستنصر ،
واذا عشاق العرب توري في الدجي
قدحا وتسهل تحت كل غضنفر ،
واذا السيوف كأنهن كواكب
تهوى ، تلامع في العجاج الاكدر ،
رجحت موازين الحليف ، ومن تكن
معه يرجح بالعظيم الاكثر ،
وبنت لنا اسيافنا صرحا فلم
يحفظ جميل العرب ، يا للمنكر

عمر الحليف ، واي وعد صانه
يوما ، واية ذمة لم يخفر ؟
لما قضى وطرا بفضل سيوفنا
نسى اليد البيضاء ، لم يتذكر .

ويرد شاعر المهجر ، ايليا ابو ماضي ، على زعم قاضي قضاة بريطانيا في حماية الاماكن المقدسة المسيحية ، في قصيدته التي يقول فيها:
ديار السلام وارض الهنا يشور على الكل ان تحزنه ،
فخطب فلسطين خطب العلاء ، وما كان رياء العلاء هينا ،
سهرنا له فكان السيوف تحز باكبادنا ها هنا ،
وكيف يزور الكرى اعيننا ترى حولها للردى اعينا ؟
وكيف تذيب الحياة لقوم تسد عليهم دروب المنى ؟
بلادهم عرضة للضياع وامنهم عرضة للفناء .
يريد اليهود بان يصلبوا ، وثأبي فلسطين ان تدعنا .
ارض الخيال وآياته ، وذات الجلال ، وذات السنا ،
تصير لسوفاتهم مسرحا وتفسدو لشذاذهم مسكنا ؟
فقبل لليهود واشياهم : لقد خدعتكم بروق المنى .
الا ليت (بلفور) اعطاكمو بلادا له ، لا بلادا لنا !
(فلندن) ارحب من قدسنا ، وانتم لمن شاء ان يسكنا ،
فان تطلبوها بسمر القنا تردكمو بطوال القنا ،
ففي العربي صفات الانام ، سوى ان يخاف وان يجينا .
وان تحجلوا بيننا بالخداع فلن تدعوا رجلا مؤمنا ،
وان تهجروها فذلك اولى فان فلسطين ملك لنا ،
وكانت لاجدادنا قبلنا ، وتبقى لاجدادنا بعدنا ،
وان لكم بسواها غنى ، وليس لنا بسواها غنى .
فلا تحسبوا لكم وطنا ، فلم تك يوما لكم موطنا ،
وليس الذي نبتغيه محالا ، وليس الذي رتمو ممكنا .
واذا ابيتم فاوصيكمو بان تحملوا منكم الاكفنا ،
فانا سنجمل من ارضها لنا وطنا ، ولكم مدفننا .

وناخذ مثلا اخر في الفرق بين الادب بمفهومه العام والادب بمفهومه الخاص - هو مشكلة اللاجئيين . فالدكتور سيد نوفل ، الامين العام المساعد لجامعة الدول العربية يكتب (في تقديمه لكتاب « مشكلة اللاجئيين العرب ») للدكتور ادوارد سيدهم :

« مشكلة اللاجئيين العرب هي في الواقع مشكلة الشعب العربي الفلسطيني ، الذي اخرج من وطنه بفا وعدوانا ، لتحتله جماعات من اليهود المواطنين في بلاد مختلفة بارجاء العالم . »

« فاللاجئ الفلسطيني العربي يسمى كذلك تجوزا ، اذ ليس لمثل هذا اللجوء نظير في تاريخ البشرية ولا في القاموس السياسي . »

« وكل ما عرف من ألوان اللجوء الاخرى ، نتيجة الاضطهاد على اساس الجنس او الدين او السياسة ، لا يمت الى هذا اللون الفريد من اللجوء . الذي يسمى به الشعب العربي الفلسطيني مجازا او احالة . »

« ولا يمكن لذلك ان تحل مشكلة هؤلاء اللاجئيين العرب ، كما حلت مشكلة اللاجئيين في اوربوا وآسيا وغيرها ... فقضيتنا قضية شعب اخرج من وطنه بوسائل استعمارية عدوانية ، ولا بد ان يعود الى الوطن ، وخاصة في هذا العصر الذي يسمى بحق عصر تصفية الاستعمار . »

« واذا كانت مشكلة اللاجئيين هي مشكلة فلسطين ، لم يكن عجبا ان تبذل اسرائيل والصهيونية السياسية العالمية والاستعمار والاستقلال الاجنبي الطامع في المنطقة العربية لم يكن عجبا ان تبذل هذه القوى العدوانية - متحالفة متأمرة - الجهود المتصلة في هذه السنوات الخمس عشرة ، لتصفية قضية اللاجئيين الفلسطينيين ، سيلا لتصفية قضية فلسطين ، والقضاء على حقوق الشعب العربي الفلسطيني في العودة الطبيعية المشروعة الى وطنه السليب . »

وحين يتناول الادب الخاص قضية اللاجئيين يقول مثلا على لسان ابو سلمى (ديوان اغنيات بلادي) :

زحفت الثم ارضي وهي باكية والقلب باك وراحت تنتشي القبل ،

والتاهيل الداخلي ، وتستغني عن ايفاد البعثات للخارج . اذ ان فيسي
تجميع الصهيونيين المؤهلين من مختلف البلدان ما يزيد من المستوى
العلمي والثقافي في البلاد . »
ويكتب في الموضوع نفسه الدكتور صالح الاشر في كتابه « في
شعر النكبة » فيقول :

« فما يكاد الجنرال اللنبي يدخل القدس حتى يستقبل في مركز
قيادته بالرملة اللجنة الصهيونية القادمة لدراسة الوضع في فلسطين،
ثم تنطلق الآلة الصهيونية تجمع المال لتشتري الاراضي العربية من
اصحابها باي ثمن ، وتسجلها ملكا ابديا للامة اليهودية جمعاء ، ثم
تقسمها قطعا وتؤجرها الى المهاجرين القادمين ، وتمنحهم القروض لبناء
المساكن ، وتساعدهم على الاستيطان ، في ظل وارف من عطف حكومة
الانتداب الانكليزية . وفي اشهر قليلة كانت الارض الجرداء تتحول الى
مستعمرات زاهية وجنات عامرة بالمواطنين المهاجرين العاكفين على تعلم
اللغة العبرية ، والخاضعين لعملية صهر قومي تجمع اشتانهم وتنسق
امورهم وتوحيدها .

« ونظم اليهود انفسهم في وكالة يهودية ترعاهم وتحمي مصالحهم،
تشتري الارض ، وتبني المستعمرات ، وتفوز بامتياز البحر الميت وثرواته،
وتبني لليهود ميناء خاصا في تل ابيب ، لتجارتهم واقتصادهم ...
واليهود يتابعون تحصين المستعمرات ، ويستعدون للمعركة المقبلة ،
ويستقبلون كل يوم افواج المهاجرين من كل صوب ، فيزدادون قوّة
وتنظيما . »

ولا شك اننا نلاحظ الفرق بين النصين ، فثانيهما مع عرضه
التاريخي ادخل في الاسلوب الادبي ، وان كان لا يدخل في مفهوم الادب
بمعناه الاخص ، ذلك المفهوم الذي نجده في النصوص الشعرية التي
تعرض لموضوع الهجرة اليهودية ، فلا تهتم بالتواريخ ولا الاحصاء ولا
اسماء الامكنة ، وانما هي تصوير للخطر ، وتحسيس للظلم والعدوان .
فهذا جورج صيدح يقول في لوعة واعي :

اضيف الهنا ، ان بيتي البياح صفير يضيق بضيف الهنا
وزادي - اعيلك منه - جراح افسس فيه فتات الضنى
شهرت عليك لساني الصراح فاعيا ، اطول منه القنا ؟
سالتك بعد القدو الرواح عسى البين يصلح ما بيننا
وما ضر لو زرت تل السفاح وعششت بين وكور الخنا ؟
هنالك سربك يجني الرياح ولا يسال اللص عما جنى
كرهناك ضيفا دجى الوشاح دجى الحواشي دجى النى
اذا وصفتك القوافي الفصاح دعوت عليها بان ترطننا

وهذا ابراهيم طوقان يقول في قصيدة جعل عنوانها « الرقم ... »
ولكنه طبعا يستعمل الرقم هنا بمفهومه البلاغي لا بمفهومه الرياضي ،
على مثال استعمال القرآن الكريم للعد في قوله تعالى : « وان يوما
عند ربك كالف سنة مما تعدون » ، وكقوله « استغفر لهم ، او لا تستغفر
لهم ، ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم . » فالراد هو
الكثرة المطلقة . يقول :

ارى عددا في الشؤم لا كثلاثة عشر ، ولكن فوقه في المصائب
هو الالف ، لم تعرف فلسطين ضربة اشد وانكى منه يوما لضارب
يهاجر الف ، ثم الف مهربا ويدخل الف سائحا غير آيب
والف جواز ، ثم الف وسيلة لتسهيل ما يلقونه من مصاعب
وفي البحر الالف كان عبابه وامواجه مشحونة بالراكب
بني وطني ، هل يقظة بعد رقدة . وهل من شعاع بين تلك الفياهب!

وعلي الجندي يصف هجرة اليهود بالداء النازل بالجسم السليم،
وبالجراد الذي يأتي على الاخضر والهشيم :
صهيون داء اساة الداء ترهبه لا تعدلن به سلا ولا جربا
وهو الجراد اذا اخنى على بلد رعى ازاهيره واستاصل العشا
ارجاله في فلسطين اذا بقيت لا قدر الله - ساء الشرق متقلبا

في طله التقت الاجداد والرسل
في جبههم يتساوى العذر والعذل
ودورهم من وراء الدمع تنتهل
وانكرتهم ربوع الاهل والملل
وفي كهوف الربى الانسان مبتذل
وتحت كل سماء معشر ذل
كانني طيف سار والحتمي ظل
على جباهكم السمراء يكتمل ؟
ولا زعيم على الشيطان يتكل
كانما هسي بالاباد تتصل
ولن نضل وفي ايديكم الشعل
ويقول محمود حسن اسماعيل (ديوان نار واصفاد)

تعاورتهم خطوب الدهر والفيصر
فما هو من وجود الناس ان ذكروا
تجدد التيه في الافاق ما قدروا
لكنهم بمدى انفسهم حشروا
ضمير باغ بمجد العرب ياتر
لو مسها الضوء لانقدت بها الستر
كانها بشقوق النمل تنحدر
اضغاث شيء تلاشى ما له اثر
بسمة بظلال الخلد تاتزر
في صدر ساكنها ان زارها الطر

وارجو الا يكون من الغرور ان
وصف اللاجئين على اثر زيارة لهم :
كل حلم جدنا به للثيم
كان ضعفا وذلة وانما
غفلت عنهم الضمائر حتى
واذا ما شربت كاس خداع
واذا ما حنيت ظهرك ذلا
شردوا اهلنا ، وقد ابدلوهم
يتموهم طفلا وكهلا جميعا
يطعمون الهوان نصف عرايا
ان راوا مزقة لتستر صدرا
يلبسون النهار حتى اذا ما

ونتقل الان الى مثال اخر في الادب الفلسطيني لثري كيف يعالجه
المؤلف الفني ، وكيف يعالجه الاديب الفنان .

فموضوع الهجرة الى فلسطين قد استوعب عديدا من الكتب
ومئات من المقالات ، كما استوعب مئات من القصائد . ففي كتاب
الدكتور احمد معوض مثلا « لن تكون لاجئين » يكتب المؤلف :

« يعتقد الصهيونيون ان اسرائيل ولدت لتسوعب كل يهود العالم .
واكد ذلك القول صراحة كتاب « حقائق عن اسرائيل » (الذي اصدرته
مصلحة الاستعلامات الاسرائيلية سنة ١٩٥٧) اذ اعلن ان « سياسة
الباب المفتوح ستبقى على الدوام السياسة القومية ، فعندما تعرض
جماعة يهودية للتهديد في مكان ما من العالم ، فتمت استعداد دائم
لترحيلهم الى اسرائيل بغض النظر عن تكاليف ذلك . » اما بن غوريون
فقد اعاد تأكيد ذلك في اول فبراير ١٩٥٩ ، اذ قال : « ان بقاء اسرائيل
وسلمها لن يكفل الا بشيء واحد فحسب ، الا وهو الهجرة الجماعية . »
« وفي الواقع ان ثمة اسبابا تدفع الصهيونية الى هذه الهجرة
الجماعية . وفي مقدمة هذه الاسباب الحصول على طاقة بشرية تصلح
للدفاع عن كيان اسرائيل من ناحية ، وللاستعداد للتوسع والعدوان من
ناحية اخرى . ولذلك حرصت سلطات اسرائيل سن المهاجرين فيما بين
(١٤) سنة و (٤٠) سنة ، واشترطت ان يكونوا من المدربين
عسكريا ، ومن اصحاب المهن الفنية والتدريبات الصناعية . وهي بذلك
ترمي الى ضرب عصقورين بحجر واحد . فهي توفّر نفقات التدريب

واختتم مقارناتي بين أسلوب الأدب الخاص والأدب العام في قضية فلسطين بمثال له أكثر من مفرى :

فقد كتب الدكتور سيد نوفل في كتابه « السياسة العربية في مقاومة أهداف الصهيونية وإسرائيل » (يونيو ١٩٦٣) فصلا عن دور المرأة العربية في قضية فلسطين قال فيه :

« ودخلت المرأة العربية ميدان الدفاع عن فلسطين . ومن أجل القضية العربية الأولى دعت رئيسة الاتحاد النسائي المصري الى عقد اول مؤتمر نسائي عربي في التاريخ . وقد اشتركت فيه مندوبات عن سيدات مصر وسورية ولبنان والعراق وفلسطين والأردن ، واتخذت فيه مقررات تؤيد قضية فلسطين وكفاح الفلسطينيين ومقاومة التقسيم ومعاناة الفلسطينيين ماديا وادبيا » . وكان هذا المؤتمر في سنة ١٩٢٨ وقد وصفه الشاعر محمد الأسمر بقصيدة جاء فيها :

يا بنات الشعر غني واهتفي للنجيات بنات النجب
زانهن الله بالفضل ، فما حلية من فضة او ذهب
وكساهن من الاداب ما دونه كل الثياب القشب
قلت للقائل « ودعهن) : لا هن في القلب فرحب رحب
من حواه القلب لم يئا وان حل في بغداد او في حلب
مصر ليست للعدو الاجنبي مصر ملك للحبيب الاقرب

وبعد فقد بقي ان اشير سريعا الى بعض المجالات الاخرى في الأدب الفلسطيني وانا ادرك ان كلا منها جدير بعدد من المتحدثين . فاذا اوجزت فانها اوجز خضوعا لقيود الزمن .

فهناك القصة والمسرحية ، وفيهما من الأدب الفلسطيني وفرة وافرة . ولولا حذري من ان اغفل بعض الكتاب لمددت العشرات منهم ، ولكنني لا استطيع ان اغفل اسم يوسف السباعي ، وعلي احمد باكثير وبرهان الدين العبوشي ، وحنا ابي راشد ، وعبد الحميد جودة السحار ، وهلال ناجي ، وبديع حقي . وقد فاز الدكتور بديع حقي ، منذ بضع سنوات ، بجائزة الدولة التشجيعية في القصة من المجلس الاعلى للفنون والاداب والعلوم الاجتماعية بالقاهرة ، وذلك عن مجموعة قصصه عن فلسطين .

ومما هو جدير بالتنويه ان هذا المجلس ، منذ عشر سنوات ، يقيم في كل عام مسابقات ادبية عن فلسطين ، في المقال ، والبحث الموجز ، والقصة القصيرة ، والمسرحية ذات الفصل الواحد ، والشعر . وترد اليه مئات النصوص ، ويفوز في كل فرع من هذه الفروع عشرة من المتسابقين . كما ان نادي القصة ، في مسابقاته السنوية تتقدم اليه قصص عن فلسطين .

واريد ان اتوه كذلك بالبحوث العلمية التي تكتب عن ادب فلسطين بمفهومه الخاص والعام . فهناك عدد ليس بالقليل من انتاج الاساتذة وطلاب الدراسات العليا . واذكر على حذر من النسيان وخوف من الاطالة بعضهم مثل الدكتور ناصر الدين الاسد ، والدكتور محمد طلعت الفخيمي ، والدكتور صالح الاشر ، والدكتور عبد الملك عودة ، والدكتور اسماعيل راجي الفاروقي ، والدكتور عبد الحميد متولي ، والاساتذ محمد عزة دروزة ، والاساتذ كامل السوافيري .

وهناك الادب المسموع في الاذاعة الصوتية والمرئية ، وهو ادب يصل الى عشرات الملايين من الناس ، ولا يمكن ان تناقشه في ذلك مطبعا او ناشر . وقد جمعت من الاذاعة المصرية بيانات تهلل وتسعد ، في كميتها وتنوعها ، سواء في البرنامج العام ، او في صوت العرب ، او في برنامج مع الشعب ، او البرنامج الخاص باذاعة فلسطين . وفي كل من هذه البرامج ، الاحاديث التي يمدتها المتحدثون المتخصصون ، والتعليقات والندوات ، والتمثيلات ، والانشيد ، والاغاني . وكل فرع من هذه الفروع جدير بالدراسة والتنويه ، ولكن ابر ما وقفت عليه هو البرنامج المسموع « بلادنا لنا » وهو يتناول بالتحريف كل قرية او مدينة فلسطين ، ويبرز معالمها الطبيعية ، ويتحدث عن نضالها ، كما

ان الى جانبه برنامجا اخر باسم « فداء فلسطين » يتناول اسماء الشهداء واعمال البطولة .

واخر ما اختتم به كلمتي هو الاشارة مرة اخرى الى الادب السياسي - غير محدود بالمقالات والتحقيقات الصحفية - بل اضمنه الادب السياسي الرسمي ، فهو عنصر هام في حياة قضيتنا الكبرى ، فالتصريحات والخطب والبيانات التي يدلي بها رؤساء الدول العربية وملوكهم ، ورؤساء الوزارات والوزراء ، والخطب والمناقشات وكل ما يتصل بها - كل ذلك رصيد ادبي ضخم ، ذو شحنة قوية فعالة فسي خدمة القضية الفلسطينية ، سواء في ذلك مجال التوعية العربية نفسها ، بابقاء الشعلة متقدة لنضال لبناء العروبة ، وكذلك مجال الدعوة والاعلام لمن يجهلون او يتجاهلون حقائق الوضع العربي الفلسطيني ، بابقاء الجذوة ملتهبة لتحرق كل من يجترئ على حقوقنا او يساعد في هذا السبيل .

ان البيان الذي القاه في مجلس الامة ، في الاسبوع الماضي ، السيد علي صبري رئيس الوزراء بالجمهورية العربية المتحدة ، عن الازمة مع المانيا الغربية ، هو من الادب السياسي المتصل بصميم قضية فلسطين ، وان الخطب والتصريحات التي صدرت عن الرئيس عبد السلام عارف ، بصدد فلسطين ، هي كذلك من الادب السياسي الذي يأخذ مكانه في التاريخ لادب هذه القضية .

وقد نشر في القاهرة مجلد يضم مقتنيات من الادب السياسي الفلسطيني . جمعت من اقوال الرئيس جمال عبد الناصر . ولا يليق ان انتقصها قدرها باقتباس شذرات قصيرة منها ، فهي مجموعة جديرة بالقراءة المتأنة ، والدرس الفاحص ، على حدتها . وحسبي في بيان قدر هذه المجموعة انها تدل على ان مؤلفها قد صدر فيها عن ايمان يكفي في الدلالة على مبلغ رسوخه وعمقه انه لم يخطب خطبة ، او يصدر بيانا ، او يعط حديثا لصحفي عربي او اجنبي - ايا كان موضوع الخطبة او البيان او الحديث - الا سلك فيه سبيله الى قضية فلسطين .

فسواء كان يخطب في مصر او في سورية ، في القاهرة او في دمشق ، في الاسكندرية او في اللاذقية ، في بور سعيد او في حلب ، في الاتحاد السوفياتي او في الهند ، في تونس او في الجزائر ، في القوات المسلحة او في الجمعيات التعاونية ، في العمال او في الطلاب ، في مصنع المطاط او في الكشافة ، في مجلس الامة او في المجلس التشريعي لغزة ، في الاحتفال بعيد الثورة او في الفلاحين حين توزيع الاراضي على المدمين ، في اعلان الدستور او في مجلس اتحاد الدول العربية ، في الازهر او في الكلية الحربية ، في مؤتمر الحامين او في مؤتمر الصحفيين في عيد النصر او في الاحتفال بالسد العالي ، في توزيع الجوائز العلمية او في المهرجان الرياضي ، في الامم المتحدة او يوم يعان قبوله لترشيح الامة الاجماعي لتجديد رئاسته للجمهورية - سواء في كل ذلك ، وقبل كل ذلك في كتابه الاول « فلسفة الثورة » ، وفي وثيقته التاريخية « الميثاق الوطني » - لا ينسى فلسطين الحبيبة ، فلسطين السلفية فلسطين الابية ، فلسطين العربية ، التي قال عنها في كتابه لرئيس امريكا السابق كندي :

« اسمحو لي ان اضح امامكم هذه الملاحظة التالية ، عليها تساعد مترابطة على توضيح صورة سريعة للمشكلة :

« لقد اعطى من لا يملك وعدا لمن لا يستحق ، ثم استطاع الاثنان - من لا يملك ومن لا يستحق - بالقوة والخديعة ، ان يسلبا صاحب الحق الشرعي حقه ، فيما يملكه وفيما يستحقه . تلك هي الصورة الحقيقية لوعد (بلفور) الذي قطمته بريطانيا على نفسها ، واعطت فيه من ارض لا تملكها ، وانما يملكها الشعب العربي ، عهدا باقامة وطن قومي يهودي في فلسطين . وعلى هذا المستوى الفردي ، فضلا عن المستوى الدولي ، فان الصورة على هذا النحو تشكل قضية نصب واضحة تستطيع اي محكمة عادية ان تحكم بالادانة على المسؤولين فيها» .

الدكتور مهدي علام